

مفهوم التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي

The concept of social change according to Malek Bennabi

أ.د. واكد رابح¹

¹ جامعة يحي فارس المدينة (الجزائر)، ouakedrabeh@yahoo.fr

تاريخ النشر:

تاريخ القبول: 2024/05/11

تاريخ الاستلام: 2024/04/04

2024/06/27

الملخص:

تبحث الورقة مفهوم التغيير الاجتماعي عند فيلسوف الحضارة " مالك بن نبي " وصلته بصناعة الحضارة، وصياغته في القرآن الكريم وكذا فحص بعض النماذج التغييرية في تجربة الحضارة الإسلامية، واهتمت أيضاً بنظرة بن نبي للواقع التاريخي الذي يؤسس التغيير بعد حالة الركود التي تصيب المجتمعات التي لا تستجيب للتحديات وتتجاوز الصعوبات، أو لا تقدر على تغيير ذاتها جراء عجزها واستسهالها الحل الأسهل بتعبير ابن خلدون.

Abstract: The paper examines the concept of social change according to the philosopher of civilization "Malik Bennabi" and its connection to the creation of civilization, and its formulation in the Holy Qur'an, as well as examining some models of change in the experience of Islamic civilization. It is also concerned with Bennabi's view of the historical reality that is established by change after the state of stagnation that afflicts societies that do not respond. She faces the challenges and overcomes the difficulties, or

is unable to change herself due to her inability and ease. The easiest solution, in Ibn Khaldun's words.

1- مقدمة :

خص مالك بن نبي التغيير بكتاب كامل ناقش فيه ظاهرة التغيير والمشكلات التي تعترض تحقيقه في واقع العالم الاسلامي ، سيما وأن تأليفه جاء في فترة تراجع حضاري للمجتمع المسلم وتخلف عن المجتمع المتقدم ، ومحاولة قوى سياسية وثقافية واجتماعية التبشير بفكرة التغيير وتجاوز التأخر في مضمار القوة والتمكن من السيطرة على مقدرات الطبيعة والابداع في الصنائع وغيرها من ملامح التقدم ، وفي فترة الستينات كانت فيه الجرائز تبني حضورها الدولي وتلج عصرها الوطني بعد زوال الاحتلال " (مالك بن نبي ، من أجل التغيير ، دار الوعي ، الجزائر ، ط1 ، 1434-2013) وقد جعل ابن باديس رحمة الله عليه (1889-1940) الآية الكريمة ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ (الرعد : 11) شعاراً لدعوته الإصلاحية " ولا سيما عند الإصلاحيين بشمال إفريقيا ، نجد أن نفس الفرد هي العنصر الجوهرية في كل مشكلة اجتماعية .. وليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها ، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية ، وتأثيرها الاجتماعي ، وفي كلمة واحدة إن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله ، بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده ، ونملاً به نفسه باعتباره مصدراً للطاقة " (مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، ترجمة عبدالصبور شاهين ، ط1427 هـ - 2006 م ، دار الفكر ، سوريا ، ص 45) .

فالتغيير لا يتأتى لوحده ، أو يكرم الله تعالى به عباده المؤمنين لمجرد الايمان والاستسلام به ، بل يحدث للاستعداد النفسي العميق له ، والقدرة على مجابهة كل الصعوبات التي تعترض طريقه ، والتضحية في سبيله ، فالذي اختار التغيير لا ينتظر السهولة والتمكين بسرعة ، بل عليه العمل المنظم والصبر الطويل وانتظار المشاق العسيرة في الطريق ، لأن كل مشقة تكشف عن الطاقة النفسية العميقة التي وصفها القرآن الكريم .

" فالعلاقة الروحية بين الله والإنسان هي تلد العلاقة الاجتماعية ، وهذه بدورها تربط ما بين الإنسان وأخيه الإنسان .. فالعلاقة الاجتماعية والعلاقة الدينية معاً من الوجهة التاريخية على أنهما حدث ، ومن الوجهة الكونية على أنهما عنوان على حركة تطور اجتماعي ، فنحن نرى من الوجهة التاريخية أن الحديثين يتوافقان ، ونلاحظ من الوجهة الكونية بناء على ما أسلفنا من اعتبارات أن الحديثين يرتبطان ارتباطاً بالأثر بالسبب في حركة التطور الاجتماعي ، فالعلاقة الاجتماعية التي تربط بين الفرد بالمجتمع هي في الواقع ظل العلاقة الروحية في المجال الزمني " (مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ، ص 57) .

2- مفهوم التغيير عند مالك بن نبي :

يرى بن نبي أن " العمل الأول في طريق التغيير الاجتماعي هو العمل الذي يغير الفرد من كونه فرداً (Indevidu) إلى أن يصبح شخصاً (Personne) وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع " (مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ، ج1 ، شبكة العلاقات الاجتماعية ، ترجمة عبدالصبور شاهين ، الإعادة السادسة ،

1427-،2006، ص 31) فالفردية صفة بدائية تعزل الفرد عن اهتمامات المجتمع وتبعده عن التطلعات المجتمعية ، وتمنعه من الاندماج في العمل الاجتماعي وتكوين هوية إيجابية تتفاعل مع الأدوار الحضارية التي ترقى به إلى الشخصية المجتمعية التي تتعاطى مع الصعوبات والمشكلات وتهتم بتحقيق انجاز للمجتمع ، وينتقل بذلك من البدائية المنكفئة على ذاتها العاطلة عن بذل أي جهد اجتماعي في التغيير إلى مسلك الحضارية المنفتحة على المجتمع والمتعاونة على تحقيق التغير المطلوب ، وتكون حركته في المجتمع نزعة اجتماعية متصلة بعمره ونافذة إلى تفكيره وسلوكه ، ليست مؤقتة ولا تعبر عن نزوة سرعان ما تزول ، بل هي اختيار اجتماعي أصيل في شخصيته منسجم مع قراراته واتجاهاته الإيجابية في خدمة المجتمع والتأثير في مسار التغيير .

وقبل إيراد مفهوم التغيير الاجتماعي بهذا المعنى، أشار مالك بن نبي إلى نظرية جون ارنولد توينبي Arnold J. Toynbee (1889- 1975) التي تحدد بدقة مشكلة الحدود التي يمكن أن يتم فيها تغيير اجتماعي معين ، وهي بذلك تفسر لنا : لماذا كان مجال انتشار الفكرة الماركسية على خريطة العالم الاقتصادية واقعا داخل حدود معينة ؟ وقد اتبع تونبي برأي بن نبي منهجا في جانب منه على تخطيط هيغل Georg Wilhelm Friedrich Hegel (1770 - 1831) ، وذلك حين شبه فكرة التعارض بعقبة ذات طابع اقتصادي أو فني عبر عنها بكلمة " التحدي " (مالك بن نبي ، ميلاد مجمع ، ص 22) .

ينظر هيغل إلى " فلسفة التاريخ " بمنظورين أساسيين : المنظور الأول يجعلها دراسة لمناهج البحث ، أعني الطرق التي يمكن أن يكتب بها التاريخ

وكيفية التحقق من صحة الوقائع التاريخية ، والكشف عن مدى صدق الوقائع ومناقشة فكرة الموضوعية في التاريخ ..الخ ، والمنظور الثاني : هو النشاط التركيبي ، وفيه لا يدرس الفيلسوف مناهج البحث في التاريخ ، وإنما يقدم وجهة نظر عن مسار التاريخ ككل وقام هيغل في كتابه بتقديم هذين المنظورين معاً ، فناقش أولاً الطرق المختلفة التي يمكن أن يكتب بها التاريخ التي يمكن أن يكتب بها التاريخ ، ثم قدم لنا وجهة نظره عن مسار التاريخ البشري بأسره (هيغل ، العقل في التاريخ ، المجلد الاول من محاضرات في فلسفة التاريخ ، ترجمة وتقديم وتعليق إمام عبد الفتاح إمام ، دار التنوير ، 2007 ص 32).

اكتسب توينبي فهمه للحضارة من منهج هيغل في سبر أغوار التاريخ وتحليل وتفسير أحداثه ، فلا يهتم للجزئيات والعناصر المركبة ، ولكنه يعتني بالتاريخ الكلي أو التاريخ العام ، ويبدأ بفحص المناهج المختلفة التي يمكن أن يكتب بها التاريخ ، ويحصرها في ثلاثة: التاريخ الأصلي ، والتاريخ النظري ، والتاريخ الفلسفي، من ثم كان توينبي ينسج على هذا النهج في نظره للحضارات المختلفة، ويفسر – برأي بن نبي – أهم المراحل في التاريخ الإنساني ، فهو يذهب إلى أن العلة في بقاء بعض الجماعات الإنسانية في حالة راکدة ، لا تكون مجتمعاً بالمعنى المقصود من هذه الكلمة ، لا تخرج عن أحد احتمالين: إما أن التحدي لم يكن كافياً لدفع طاقتها إلى إجابته، وإما أن هذه الجماعات قد عمدت إلى الفرار من طريقه ..فشعوب أعالي النيل إبان العصر الحجري الجديد ، فلم تستطع أن تحدث تغييراً ذا بال في شرائط حياتها منذ ذلك الحين ، لأنها قد عمدت إلى الفرار من قسوة التحدي أما إخوانهم الذين كانوا يعيشون في الوادي المنخفض فقد آثروا مواجهة التحدي، الذي واجهتهم به الطبيعة والمناخ فغيروا بذلك شرائط حياتهم تغييراً تاماً،

ونجحوا في إقامة أو مجتمع متحضر شهده التاريخ. فنقص التحدي وعنفه يؤثران بصورة واحدة على قوى التاريخ الإنساني (مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع، ص 24) .

يجعل توينبي العامل الإيجابي في نشأة الحضارات ينحصر في عنصري التحدي والاستجابة ، الذي جعل منه نظرية في تفسير التاريخ أطلق عليها نظرية التفسير الحضاري ، فالظروف الصعبة التي يعيش فيها مجتمع من المجتمعات هي الحافز الأول إلى إيجاد الحضارة ، بعبارة أخرى إن أي مجتمع يتعرض لمصائب (استعمار – غزوات) ويستجيب لهذه المصائب بالتحدي يكون قد وضع أول خطوة له في بناء سيادته ، ويكون انهيار الحضارة بسبب قصور المجتمع المتحر عن مواصلة عملية التحدي والاستجابة لما انغمس فيه من خمول وترف ، أو لما يل إليه المجتمع من (مركب العظمة) (مصطفى محمد طه ، التحدي والاستجابة في الحضارة الإسلامية ، مجلة الدارة، بدون تاريخ ، ص 5) .

3- صياغة المفهوم في ضوء القرآن الكريم :

بعد أن أشار مالك بن نبي إلى فكرة توينبي (التحدي والاستجابة) أراد أن يصوغ الفكرة صياغة جديودة في ضوء القرآن الكريم ، ويفسر الحركة التاريخية بالعوامل النفسية التي حفزت القوة الروحية في المجتمع – شروط حركته عبر القرون – ويرى أن " القرآن قد وضع الضمير المسلم بين حدين هما : الوعد والوعيد .. فالوعيد هو الحد الأدنى الذي لا يوجد دونه جهد مؤثر ، والوعد هو الحد الأدنى الذي يصبح الجهد من ورائه مستحيلا ، وذلك حين تطغى قساوة التحدي على القوة الروحية التي منحها الإنسان وبذلك نجد أن

الضمير المسلم قد وضع بين حدي العمل المؤثر ، وهما الحدان اللذان ينطبقان على مفهوم الآيتين الكريمتين " أ " ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (الأعراف:99) " ب " ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَأْسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (يوسف : 87) (مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ، ص 25) .

فالوعد حسب القاضي عبد الجبار " هو كل خبر يتضمن إيصال نفع إلى الغير أو دفع ضرر عنه في المستقبل ، ولا فرق بين أن يكون حسناً ومستحقاً وبين ألا يكون كذلك ، أما الوعيد فيعني : إذا أوعد الرجل قيل أوعد وأبرق ، وفي حديث أبي مليكة إن أُمنا ماتت حين رعد الإسلام وبرق ، أي جاء بوعيده وتهديده ، ويعرفه القاضي عبد الجبار الوعيد بقوله " كل خبر يتضمن إيصال ضرر إلى الغير أو تفويت نفع عنه في المستقبل ، ولا فرق بين أن يكون حسناً مستحقاً وبين ألا يكون كذلك " (مسالتي عبد المجيد ، الوعد والوعيد بين الجزاء الإلهي والفعل الإنساني عند المعتزلة ، مجلة مفاهيم للدراسات الفلسفية والإنسانية المعمقة ، جامعة زيان عاشور ، الجلفة ، الوعد العدد العاشر ، أكتوبر 2021 ، ص 85) .

فآية ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ تعني في تفسير ابن كثير " أمنوا بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذهم إياهم في حال سهوهم وغفلتهم ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله " المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن " (ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، الموقع الالكتروني) فالذي يأمن مكر الله تعالى يتأخر عن العمل ولا يجد جدوى في الارتباط بالطاعة فيترجع عن البذل والاستجابة لمتطلبات الدور

المنوط به ويخلد إلى الدعة والسكون ، فلا يتحدى الصعوبات ويبقى لصيقاً بأداء شروط الوجود البيولوجي دون الاجتماعي .

وآية ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ تحسسوا بحواسكم، في لطف وبصر وصبر على البحث ، ودون يأس من الله وفرجه ورحمته. وكلمة "روح" أدق دلالة وأكثر شفافية، ففيها ظل الاسترواح من الكرب الخائق بما ينسم على الأرواح من روح الله الندى ﴿ إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ فأما المؤمنون الموصولة قلوبهم بالله، الندية أرواحهم بروحه، الشاعرون بنفحاته المحيية الرخية، فإنهم لا ييأسون من روح الله ولو أحاط بهم الكرب، واشتد بهم الضيق، وإن المؤمن لفي روح من ظلال إيمانه، وفي أنس من صلته بربه، وفي طمأنينة من ثقته بمولاه، وهو في مضايق الشدة ومخائق الكروب... ويدخل إخوة يوسف مصر للمرة الثالثة، وقد أضرت بهم المجاعة، ونفدت منهم النقود، وجاءوا ببضاعة رديئة هي الباقية لديهم يشترون بها الزاد.. يدخلون وفي حديثهم انكسار لم يعهد في أحاديثهم من قبل، وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام (سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج 4 ، ص 2026) .

فعدم اليأس يحفز الانسان على العمل ومقاومة المشاكل والصعوبات والاستجابة لتحديات التغير الاجتماعي، وكل عقبة في المجتمع تدفع إلى مزيد من المحاولة والحرص على تجاوزها ، سيما وأن اليأس من روح الله تعالى يجحد نعم الله عليه ولا يعترف بعطائه ، ويتعد عن مواطن الامل ، ويعيش يجلد ذاته ولا يفكر مطلقاً في الاتصال به والتوكل عليه والاستمداد منه ، كما كان مثال النبي يوسف مع أبيه وإخوته .

ويقدم بن نبي مثالين يؤكدان فهمه لصياغة مفهوم التغيير الجديد في القرآن الكريم ، والمثالين عن صحابين تمثلا الاستجابة للعقيدة والصبر على البلاء يقول " في هذه الحالة الروحية صبر بلال رضي الله عنه (43 ق هـ) على ما كان يلقاه من عذاب ومحن ، وهو في قمة المحنة يرفع إصبعه وهو يكرر إجابته على تحدي قريش " أحد .. أحد .." ولم تستطع قوة في الأرض ، وما كان لها أن تخفض أصبعه ، إذ أن روحه في اللحظة التي كانوا يصبون فيها العذاب على بدنه كانت منغمرة في فيض نوراني لا يوصف ، هو وعد الحق " (مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ، ص 25) لم يستسلم للصخرة الحامية ولم يخضع لجلاده ، بل وقف صامداً محتسباً معلناً كلمة التوحيد لله تعالى ، لأنه عرف الحق وأدرك زيف الجاهلية واطرد اتصاله بخالقه ، فلم يضعف أمام جبروت قريش مع انه كان عبداً مملوكاً واختار عبوديته لله تعالى .

وجاء في طبقات ابن سعد بإسناده ما فحواه " أنه كان من المستضعفين من المؤمنين وكان يعذب حين أسلم ليرجع عن دينه ، فما أعطاهم قط مما يريدون ، وكان الذي يعذبه أمية بن خلف ، وكانوا إذا اشتدوا عليه في العذاب قال : أحد أحد فيقولون له قل كما نقول ، فيقول إن لساني لا يحسنه ، وكانوا يأخذونه فيمطونه ويلقون عليه من البطحاء وأنطاع الأدم ويريدونه على أن يذكر اللات والعزى فلا يذكرهما ويقول أحد أحد ، فأتى عليه أبو بكر رضي الله عنه فسألهم علام تعذبون هذا الإنسان ، واشتراه بسبعة أواق وأعتقه (عباس محمود العقاد ، داعي السماء بلال بن رباح مؤذن الرسول ، مؤسسة هنداوي 2015 المملكة المتحدة ، ص 59) ، تماسك بلال رضي الله عنه ولم يستجيب لدعوتهم وأثر اتباع الدين الجديد الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

ذلك لأن بلالا رضي الله عنه يرنو تغيير ذاته ومجتمعة وشعر شعوراً عميقاً بأن الحالة الاجتماعية التي يعيشها وكذا الممارسات غير المنسجمة مع فطرته وحقيقة وجوده يجب أن تتغير ويحل محلها تعاليم الإسلام الذي يحرر العبيد ويصون كرامة الإنسان " هذه صورة بلال رضي الله عنه في مبدأ إسلامه وهو يتلقى العذاب ويتعرض للموت ولا يصل به الإسلام إلى الوعود - فضلاً عن تحقيق الوعود - في معاملة المستضعفين من العبيد والإماء ، لأن أحكام الإسلام في معاملة الأسرى على التعميم لم تكن معروفة مفصلة في ذلك الحين ، وإن آخر ظن يخطر على بال المرء ، إذ يرى بلالا على تلك الصورة المؤلمة ، انه يرى أمامه رجلاً وازن بين سوء المعاملة في الجاهلية وحسن المعاملة في الإسلام فاخترار المعاملة الحسنة ودخل في الدين الجديد (عباس محمود العقاد ، داعي السماء ، ص 59) لأنه فقد الطمأنينة مع معبودات الجاهلية ، ولم يجد أمانه النفسي مع مقرراتها وتعليماتها ، فقرر التغيير والتحول إلى فريق المؤمنين مع النبي صلى الله عليه وسلم .

والقصة التي يدلل بها بن نبي على مفهوم التغيير الاجتماعية " قصة المرأة التي طلبت من الرسول صلى الله عليه وسلم إقامة حد الزنا عليها تبرز لنا قيمة الوعيد في توجيه الطاقات النفسية في حالة معينة " (مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ، ص 25) حدثنا أبو بكر قال حدثنا ابن نمير قال حدثنا بشير بن المهاجر قال حدثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : جاءت الغامدية فقالت : يا رسول الله ، إني قد زنيته وإني أريد أن تطهرني ، وأنه ردها ، فلما كان الغد قالت : يا نبي الله ، لم تردني ، فلعنك تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك ، فوالله إني لحبلى ، قال : إما لا فاذهبي حتى تلدي ، فلما ولدت أنته بالصبي في خرقة ، قالت : هذا وقد ولدته ، قال : اذهبي فأرضعيه ، حتى تطفميه فلما فطمته أنته بالصبي وفي يده كسرة خبز فقالت : هذا يا نبي الله قد

فطمته ، وقد أكل الطعام ، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها ، وأمر الناس فرجموا ، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها ، فانتضخ الدم على وجه خالد بن الوليد ، فسمع نبي الله سبه إياها ، فقال : مهلا يا خالد بن الوليد ، فوالذي نفسي بيده ، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت (ابن أبي شيبة - عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، المصنف في الأحاديث والآثار ، دار الفكر ، سوريا ج 6 ، 585). فكل هذه أدلة تشهد بصدق توبة المرأة، ولا عليها أنها زنت في لحظة ضعف تسلط الشيطان عليها، أو أن الأجواء هيأت الوقوع في المعصية فوقعت فيها، لكنها سرعان ما فاءت ورجعت إلى ربها، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: (والذي نفس محمد بيده، لو لم تذنّبوا لذهب الله بكم وأتى بقوم غيركم يذنبون فيستغفرون الله تعالى، فيغفر الله لهم. (حسن ابو الأشبال الزهيري ، شرح صحيح مسلم ، كتاب الحدود موقع إسلام ويب) .

فالغامدية جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم لتعبر عن حالة نفسية مرتبطة بالوعيد متصلة بأنموذج مثالي يبحث عن تطهر يخلص من الذنب ويرقى بالنفس المؤمنة إلى مراقي الصفاء النفسي ، دون مراعاة لتغيير المجتمع للذنب المرتكب أو ندم على يمكن أن يقوله الناس من كلام مؤلم للذات ، لأنها اهتدت إلى مضمار التوبة وامتزجت بمشاعر الإقبال على الله تعالى ، فلذا وصفها النبي صلى الله عليه وسلم توبتها بالمقبولة وصلى عليها ودعا لها " فالقوة الروحية التي تتطابق مع العمل المثمر الفعال تقع إذن بين حالين من أحوال النفس لا يوجد وراءهما إلا الخمول والرخاوة في جانب واليأس والعجز في جانب آخر ، وإن القرآن الكريم ليعرض لنا صورة أخذة لهذين الحدين اللذين يضمن العمل المثمر في قوله تعالى ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كُفُورًا وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْنُونَةٍ

أَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) (سورة هود: 9- 11) (مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ، ص 25) .

يحب الإنسان دوام الرحمة واستمرار العافية واطراد توافر الخير عليه ، فإذا تغيّر حاله ونزعت منه النعماء وتحول إلى ضراء نسي حاله الأولى وتردى إلى سلوك اليأس والكفر وتمرد على منهج الله تعالى عدا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، الذين لا يتقلبون ويتغيرون بتغير النعماء ، بل يثبتون ويوقنون أن العطاء والنزع من الله تعالى ، يختبر به عباده المؤمنين فلا يزيغوا عن حال الإيمان والعمل الصالح والذي ييأس هو الذي ليس له إله يركن إليه ، لأن الله تعالى هو الركن الرشيد الشديد، والمؤمن إن فقد شيئاً يقول: "إن الله سيُعوّضني خيراً منه". أما الذي لا إيمان له بالله فهو يقول: "إن هذه الصدفة قد لا تتكرر مرة أخرى." فالإنسان الذي يُسرق منه جنيته قد يحزن، ولكن إذا ما كان عنده في المنزل عشرة جنيهاً فهو يحزن قليلاً على الجنيه المفقود، والإنسان لا ييأس إلا عند عدم يقينه بمصدر يرد عليه ما يريده، ولكن حين يؤمن بمصدر يرد عليه ما يريده فلا تجده يائساً قانطاً والمؤمن يعلم أن النعمة لها واهب، إن جاءت شكر الله عليها، وإن سلبت منه، فهو يعلم أن الحق سبحانه قد سلبها لحكمة ، والإنسان لو عزل نفسه عن منهج الله تعالى فهو في خسران إلا إذا اتبع منهج الله، فالمنهج يحميه من الزلل، وتسير غرائزه إلى ما أراد الحق سبحانه لها. (الشعراوي ، خواطر الشعراوي ، موقع الكتروني)

4- العمل التاريخي:

يحدث التغيير ليسجل تاريخاً جديداً بديلاً عن التاريخ الساكن الذي أحرّ الفكر والوعي ولم ينتج شيئاً للإنسان والمجتمع ، ويصنعه بالضرورة في تصور بن نبي " الأشخاص والأفكار والأشياء جميعاً، ومعنى هذا أنه لا يمكن أن يتم عمل تاريخي إذا لم تتوافر صلات ضرورية داخل العوالم الثلاثة لتربط أجزائها في نطاقها الخاص وبين هذه العوالم ، لتشكل كيانه العام من أجل عمل مشترك " (مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع، ص 26) فالشخص المجتمعي يستجيب لتحدي التغيير ويتلقى فكرته ويقنع بمنهجه ، ثم ينتقل إلى دائرة الأشياء فيتعامل معها تعامل المبتكر المبدع لا المستورد ، ويمكن أن يستوردها أول مرة ولكنه يحرص على استنباتها في بيئته .

ويربط بن نبي العوالم الثلاثة (الأشخاص والأفكار والأشياء) ببناء الحضارة فيقول " فعلى عتبة حضارة ما ليس هو عالم الأشياء الذي يتبدل ، بل بصورة أساسية عالم الأشخاص ، وحتى الوسائل التقنية في هذه المرحلة بالذات لا تتجه نحو الأشياء ، وإنما نحو الإنسان باعتبارها تقنية اجتماعية تحدد العلاقات الجديدة داخل المجتمع على أساس ميثاق جديد منزل كالقرآن الكريم أو موضوع من الأشخاص كدستور (iassa) جنكيز خان ، والدستور الفرنسي (1793) ، لكن الشرط الأول لضمان شبكة علاقاته الجديدة داخل المجتمع كما رأينا : هو أن توضع حدود لطاقته الحيوية ، وهناك في عالم الأفكار داخل المجتمع تراتب بين الأفكار التي تغير الإنسان والأفكار التي تغير الأشياء ، فالأفكار الأولى تضع قدرة تكيف الطاقة الحيوية على عتبة حضارة ، أما الأفكار الثانية فإنها تطوع المادة لحاجات الحضارة في المرحلة الثانية (مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ترجمة بسام بركة ، أحمد شعبو ، تقديم عمر مسقاوي ، دار الفكر ، بيروت - لبنان - ط1 ، 1988 ، ص 58) .

وهنا يحصل التغيير الاجتماعي الذي يؤسس لتاريخ جديد ناسخ للتاريخ السابق الذي جمد أفكار الإنسان ولم يمنحها العطاء والتفاعل مع مقتضيات الأشخاص والأشياء ، فهو يملك أشياء ولكنه يعجز عن تحويلها إلى منتجات حضارية تترجم هويته وفكرته ، ويملك أشخاصاً ، بل ثروة بشرية دون فاعلية وتكيف مع متطلبات المرحلة الحضارية ، ولذا فقد الانخراط في سكة الحضارة وأمسى تابعاً لغيره لا يقدر على فعل شيء ، فالتغيير إذن ينتجه تفاعل العوالم الثلاثة ويبطله سكون أو جمود العوالم الثلاثة في عالمنا الإسلامي أو في العوالم الأخرى .

ويثبت مالك بن نبي دور الأفكار في إنتاج الحضارة بإيراد نماذج تاريخية عديدة ، مثل ظاهرة روبسبير الذي أضاف بعد فوات الاوان فكرة الكائن الأعلى (L' Etre supreme) .. ولحظة ارخميدس عندما أطلق صرخة الفرخ (اوريكالكا ewreka) ، وصرخة سيدنا موسى إذ أنس نوراً ، وصيحة باسكال حين دعا الضمير المسيحي إلى تذكرها ، في روائع الأدب الفرنسي في القرن السابع عشر نار .. نار .. فرح ! .. دموع الفرخ ، وصيحة نيتشه لدى اكتشافه (قانون العود الأبدي) وصيحة كريستوف كولومبس ورجال سفينتهم لدى اكتشافهم جزر الهند الغربية عام 1492 ، وانتصار فكرة الحرية والمساواة والاخوة " التي أطلقها شعب باريس فأطاحت بسجن الباستيل في الرابع عشر من تموز عام 1789 ، ويعود رجع ذلك اليوم في التاريخ إلى الإطاحة بعرش بطرس الأكبر في تشرين الاول أكتوبر عام 1917 (مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ص 62) .

يثبت مالك بن نبي فاعلية الأفكار بسرد الوقائع التاريخية في التاريخ البشري ، وهي وقائع أسهمت كلها في بناء الحضارة وإنتاج التقدم وتحول

الفكر البشري من حال إلى حال ، وكشفت فعلا عن أن الاستجابة للتغيير الاجتماعي تكون بعد تحدي الصعوبات وتجاوز المعوقات ، إذ الصعوبات " أزمة نمو تعيشها الأمة العربية ، وطبيعي أنه ككل نمو لا بد من تعب وقلق وألم ، ذلك أنه يقع في المجتمع وفي الفرد نفسه أيضاً شيء من التطاحن ، بين قوات سلبية تدعوه إلى السكون ، وهي دعوة تجد في طبيعة الإنسان عامة قبولاً بسبب ميله الفطري إلى السهولة ، وبين قوات إيجابية تدعوه إلى الكد والعمل ، تحثه صعوداً إلى الرقي الذي هو رسالة الأمة وإلى الدفاع عن كيان المجتمعات ، وبصورة عامة غنها تدعوه إلى القيام بالواجبات ، وهكذا نرى ان الصعوبات هي اكبر مبشر بالحياة الاجتماعية الصحيحة (مالك بن نبي ، تأملات ، دار الفكر – دمشق - ط 5 - 1412 - 1991 ، ص 21) .

5- خلاصة:

خص بن نبي التغيير الاجتماعي بمؤلف " من أجل التغيير " وأيضاً تناول خصائصه ونماذجه التاريخية في كتابه الآخر " ميلاد مجتمع " واعتبر- التغيير الاجتماعي - ذو صلة ببناء الحضارة وتشكيل البديل فبنظره أن المجتمع الذي لا يستجيب للتحديات ويغالب الصعوبات ويتخطى العراقيل يبقى على حال السكون والتخلف ويدفع التغيير المطلوب ، متفقاً مع توينبي الذي صاغ قاعدة التحدي - الاستجابة إذ التحدي الأمثل هو ما يشتمل على كمية الحركة التي تحمل الطرف المتحدي خطوة أبعد من استجابة ناجحة بمفردها، تحمله من مرحلة استكمال استجابة إلى مرحلة صراع جديد، من مشكلة واحدة حلت إلى مواجهة أخرى؛ أي من حالة الين (التي تعني الركود) إلى مرحلة (اليانج) وهو قانون في الصين يدعى الين واليانج .

واهتم بن نبي بصوغ المفهوم في القرآن الكريم فاستدل بآيتين في سورتي يوسف وهود (الوعد والوعيد) وأورد قصة بلال والغامدية رضي الله عنهما للتدليل على أثر الإيمان في التغيير والتحول إلى الحيوية النفسية التي تجعل الإنسان يغالب أي صعوبة ويستعلي على أي تحدي من أجل الوصول إلى هدف التغيير الذي تحدث عنه القرآن الكريم قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الرعد:11) فالتغيير الاجتماعي يستلزم التغيير الداخلي النفسي الذي ينفي التلون والتصنع والنفاق ومجاراة الناس ، بل ينطلق من قناعة عميقة وإرادة لا تكتثر بالخارج أو ما من شأنه أن يمنع حدوث التغيير ، فبلال رضي الله عنه تلقى عنثاً كبيراً من امية ، ولكنه لم ينهزم لإرادة الكفر ، بل غلب جلاده وفرض اختياره الايماني الجديد .

وفي العمل التاريخي الذي يجسد التغيير الاجتماعي ، أشار بن نبي إلى العوالم الثلاثة (الأشخاص ، والأفكار ، والأشياء) التي تتفاعل مع بعضها وتتألف وتنجز الحضارة المطلوبة أو الاستجابة لمتطلبات التحضر ، والفكرة يحملها الشخص ، ويتجه بها نحو الإبداع والانجاز (عالم الأشياء) ويحقق بها المطلوب ، فالذي لا يحمل فكرة لا يتمكن من فهم الحال ولا يقدر على الانطلاق للتغيير الاجتماعي وكذا الذي يهتم بالأشياء استيراداً أو بيعاً ولا يهتم استنبات الأشياء في بيئته ، فيظل تابعاً للمنتج ، وفي التبعية هدر للسيادة الذاتية وتمكين الخارجي من التدخل في القرار الداخلي وتفكيك بنيان الدولة وتضاعف الضغوط على النظام السياسي .

- قائمة المراجع:

- 1-مالك بن نبي ،من أجل التغيير ، دار الوعي ، الجزائر ، ط1، 1434-2013).

2- مالك بن نبي ،مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ترجمة بسام بركة ، أحمد شعبو ، تقديم عمر مسقاوي ، دار الفكر ، بيروت – لبنان - ط1 ، (1988).

3-الشعراوي ،تفسير الشعراوي ،اخبار اليوم ،

4-ابن أبي شيبة - عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، المصنف في الأحاديث والآثار ، ج 6 ،دار الفكر سوريا ،

5-عباس محمود العقاد،داعي السماء بلال بن رباح مؤذن الرسول ، مؤسسة هنداوي 2015 المملكة المتحدة.

6-سيد قطب ،في ظلال القرآن ، ج 4 ، دار الشروق ، القاهرة – مصر - ط10 ، 1402 – 1982) .

7- مالك بن نبي ،من أجل التغيير ، دار الوعي ، الجزائر ، ط1، 1434- (2013)